الدرس الثاني عشر

الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب

الكتب جمع كتاب، وهو مشتق من الكتب، ومعناه الجمع والضم، وأصله مشتق من كتب الأديم، وهو الجلد، وذلك بضم بعضه إلى بعض بالخياطة[1]، وأطلق ذلك على الكتاب لما فيه من جمع الحروف في الكلمة لتعطي معنى معيناً وتضم الكلمات في الجملة لتعطي معنى أشمل، والكتاب عبارة عن مجموعة الجمل ليعطي موضوعاً معيناً.

وقد ثبت الإيمان بالكتب في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾[3] وفي الحديث عندما سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)[4].

كما أن الإيمان بالكتب ثابت عقلاً، فإن الإنسان يغلب عليه الضعف: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[5] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[6]، وللإنسان عدو كبير وخطير وهو الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[7]، فاحتاج هذا الضعيف إلى ما يتقوى به على عدوه، فكانت الكتب السماوية هي التي تحيط هذا الإنسان بعوامل القوة والحماية من ذلك العدو.

---

(١) انظر مفردات القرآن للأصبهاني ص ٦٩٩.
(٢) البقرة آية ٢٨٥.
(٣) النساء آية ١٣٦.
(٤) رواه مسلم وأصحاب السنن بألفاظ متقاربة. انظر جمع الفوائد ح ١ ص ١١. كتاب تعريف الإيمان والإسلام. رقم الحديث ٣٦.
(٥) النساء آية ٢٨.
(٦) الروم آية ٥٤.
(٧) فاطر آية ٦.

وهذه الكتب السماوية أنزلها الله تعالى على الأنبياء والرسل لتكون مرجعاً للأمة في الوقوف على ما يريد الله تعالى منهم أن يفعلوه، وليحتكم الناس إليها بعد الرسل، ولتكون عامل صيانة لتعاليم الرسل من بعدهم، وأخيراً لتكون عامل استمرار للدعوة بعد الرسل.

ووسيلة وصول الكتب السماوية إلى البشر هي الوحي.

والوحي لغة: ـ إعلام سريع في خفاء.

واصطلاحاً: ـ إخبار الله تعالى نبياً من أنبيائه بحكم شرعي.

ولوصول الوحي إلى الأنبياء والرسل صور شتى منها: ـ

أن يأتي على هيئة صلصلة الجرس وهو أشده وأثقله.

ومنها أن يأتي على هيئة النفث في الروع.

وقد يأتي ملك الوحي على هيئة رجل.

وأحياناً يأتي في اليقظة، وقد يأتي في النوم أحياناً أخرى.

ومنها أن يكلم ملك الوحي الرسول من وراء حجاب دون أن يراه.

وفي القرآن إشارة إلى أنواع من الوحي في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[1].

مضامين الكتب

الكتب السماوية تتفق في جانب العقيدة من حيث الإيمان بالله تعالى والكتب والملائكة والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[2] ولفظة (كلّ) تشمل

(١) الشورى آية ٥١.
(٢) البقرة آية ٢٨٥.

كل الأنبياء والرسل. وتتفق الكتب السماوية أيضاً في جانب الأخلاق، للحديث (إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق)[1].

ولكن هذه الكتب السماوية تختلف فيما بينها من الناحية التشريعية العملية في تفصيلاتها، فالصلاة والزكاة والصيام والحج عبادات مشروعة في الأديان السابقة في الجملة: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[2]، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[3]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[4]، ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾[5] ولكن تفاصيل وكيفية أداء هذه العبادات تختلف من دين إلى دين.

وفي القرآن إشارة إلى بعض مضامين الكتب السماوية السابقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[6]، ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[7]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[8]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[9]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) رواه مالك بلاغاً في الموطأ، قال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة، وغيره، انظر كشف الخفاء ح ١ ص ٢٤٤ رقم الحديث ٦٣٨.
(٢) مريم آية ٣١.
(٣) مريم آية ٥٩.
(٤) البقرة آية ١٨٣.
(٥) الحج آية ٢٧.
(٦) النجم آية ٣٦ـ ٤١.
(٧) الأعلى آية ١٩.
(٨) المائدة آية ٤٥.
(٩) المائدة ٤٧.

ولكن هذه الكتب السابقة دخلها التحريف والتزوير لأسباب عديدة منها:

أولاً: ـ مجاملة بعض علماء تلك الأديان للسلاطين، وسكوت البعض الآخر عن ذلك فانتشر الانحراف وتجذر مع الزمن.

ثانياً: ـ سَعْي بعض علمائهم إلى تلبية شهواتهم المالية أو الوجاهية على حساب تعاليم الدين وأحكامه، فأغفلوا بعضها وزوروا البعض الآخر وسكت عليهم الآخرون من العلماء فانطمست الحقيقة في أعين العامة من الناس ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

ثالثاً: ـ تَعرُّضُ علمائهم للاضطهاد والتشريد والتعذيب على أيدي سلاطين ظلمة في مختلف العصور، سواء على أيدي الرومان ضد اليهود وعلمائهم أو على أيدي الآشوريين أو المصريين أو البابليين، كما تعرض النصارى للاضطهاد على أيدي أباطرة الرومان وسلاطينهم وبدعم من اليهود أحياناً في مراحل مختلفة من التاريخ، من أبرزها عصر الإمبراطور نيرون الذي تولّى السلطة سنة ٥٤م، والإمبراطور تراجان سنة ٩٨م، والإمبراطور دكيوس سنة ٢٤٨م، والإمبراطور دقلديانوس سنة ٤٨٤م، تلاه قسطنطين الأكبر الذي حكم الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠٦م، وتنصر سنة ٣١٢م، وتظاهر بأنه يسعى إلى إنهاء ما نشب من خلافات عميقة بين النصارى في شأن المسيح عليه الصلاة والسلام وتعاليمه، فدعا إلى عقد مؤتمر عالمي يضم علماء النصارى من كل مكان في العالم فاجتمع فيه (ألفان وثمانية وأربعون عالماً) فطرح المسائل المختلف عليها بينهم في المؤتمر وأهمها قضية ألوهية المسيح عليه الصلاة والسلام، فكان رأي الأكثرية من الحاضرين أنه رسول بشر، فأخذ قسطنطين برأي الأقلية (ثلاثمائة وثمانية عشر عالماً) التي تقول: إنه إله، والتي طلبت منه أن يجبر المعارضين على الأخذ برأيهم

---

(١) المائدة آية ٧٨.

في المسيح عليه الصلاة والسلام فكانت موجة اضطهاد كبيرة قام بها هذا الأمبراطور في محاولة لطمس معالم الحقيقة عند الآخرين مستخدماً سلطته المادية والمعنوية في ذلك[1] فدمّر المسيحية تحت ستار مناصرتها.

وقد تسببت هذه الظروف من الاضطهاد والمجاملة والطمع من علماء الأديان السابقة في تحريف وتزوير وطمس معالم تلك الديانات.

نماذج من التحريف في الكتب السابقة

أولاً: ـ على مستوى الألوهية: ـ

الله تعالى عندهم في التوراة يندم، وذلك أنه حين أمر بتعذيب بعض العصاة من بني آدم، جاء العذاب أكبر مما ينبغي حتى إنه شمل اليهود الذين هم أبناء الله تعالى وأحباؤه في زعمهم، فلما رأى الله تعالى ذلك ندم على ما كان قد قرره ضدهم من العذاب. بل وندم على أنه خلق الإنسان في الأرض[2].

والله تعالى عندهم في التوراة يجهل، فإنه حين أمر آدم عليه الصلاة والسلام باجتناب الأكل من شجرة معينة في الجنة وخالف آدم عليه الصلاة والسلام في ذلك فأكل منها، وتفقده الله تعالى ذات مرة فلم يجده فناداه قائلاً: يا آدم أين أنت؟ لعلك أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها[3]؟

والله تعالى عندهم في التوراة يتعب، فإنه حين خلق السموات والأرض في ستة أيام مسه تعب شديد فاستلقى على قفاه ليستريح في اليوم السابع، فرد الله

---

(١) انظر مجمل ذلك في: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ح ٢ ص ١٧. خصائص التصوّر الإسلامي لسيد قطب ص ٢. العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة ص ٣٥ وما يليها. الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ص ٣٥.

(٢) ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين يقول في الآية رقم ٦: ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. الكتاب المقدس ص ٥.

(٣) انظر سفر التكوين الإصحاح الثالث في الكتاب المقدس ص ٣.

تعالى عليهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[1]، ولهذا فإنهم لا يعملون يوم السبت ويجعلونه يوم راحة في الأسبوع اقتداء بالله تعالى في زعمهم.

ويقولون بأن الله تعالى عن كفرهم في التوراة قد صارع يعقوب عليه الصلاة والسلام فصرعه يعقوب، وتمكن الله في تصوّرهم من الفرار منه إلى السماء بعد ذلك[2].

ثانياً: ـ على مستوى النبوة: ـ

قالوا في التوراة إن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان يشرب الخمر حتى الثمالة[3]، وإن داود عليه الصلاة والسلام كان إذا أعجبته نساء بعض ضباطه في الجيش يرسلهم إلى أرض المعركة ليعاشر زوجاتهم من بعدهم بالزنا[4]، وقالوا إن لوطاً عليه الصلاة والسلام زنا بابنتيه بعد أن أسكرتاه، وولدتا منه أولاداً[5]، واتهموا المسيح عليه الصلاة والسلام بأنه ابن زنا في حين جعله النصارى إلهاً[6] وابن إله[7]، تعالى الله تعالى عن كفرهم جميعاً.

ثالثاً: على مستوى الأخلاق:

يقسم اليهود البشر بمقتضى فهمهم للتوراة ـ التي شرحوها بما يسمونه بالتلمود ـ إلى يهود وأمميين، ويصفون اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأما الأمميون فإنهم عندهم كلاب وخنازير في الحقيقة، لكن الله تعالى جعلهم على هيئة البشر ليألفهم اليهود عندما يستخدمون هؤلاء الأمميين.

---

(١) ق آية ٣٨.
(٢) انظر الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين آية ٢٥ من الكتاب المقدس ص ٢٢.
(٣) انظر الإصحاح التاسع من سفر التكوين الآية ٢٠ وما بعدها في الكتاب المقدس ص ٨.
(٤) انظر الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني في الكتاب المقدس ص ٢٩٩.
(٥) انظر الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من الآية ٣٠ إلى ٣٦.
(٦) قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) المائدة آية ١٧.
(٧) قال الله تعالى (إذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) المائدة آية ١١٦.

ويعتقدون أن كل ما في هذا الكون من خيرات فإنما هي مخلوقة لليهود إكراماً لهم، وما يمتلكه غير اليهودي من أموال وعقار وأرض فإنما هي من أملاك اليهود قد اغتصبها الأممي، فلليهودي الحق في أن يسترجعها بأي أسلوب عند القدرة على ذلك، وقد حكى القرآن عنهم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[1].

وبالتالي فلا حرمة لغير اليهودي عندهم، لأنهم يعتبرونهم معتدين مغتصبين لحق اليهود كما هو ثابت عندهم في التلمود[2]، وهو كتاب وضعه زعماء اليهود، تظهر فيه أطماعهم وأحقادهم.

ومن أهم مبادىء التلمود[3]:

- اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم من عنصر الله كما الولد من عنصر أبيه.
- الموت جزاء الأممي إذا ضرب اليهودي.
- لولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض.
- الأمميون جميعاً كلاب وخنازير.
- يحرم على اليهودي العطف على الأممي وكل شر يعمله معه فهو قربان إلى الله.
- يحرم على اليهودي الربا الفاحش مع اليهودي لكنه جائز مع الأممي.
- يحرم على اليهودي سرقة اليهودي ولكنه واجب مع الأممي.

إلى غير ذلك من المبادىء التي تبرهن على ما يحمله اليهود من حقدٍ على

---

(١) آل عمران آية ٧٥.

(٢) معناه بالعبرية النظام، وهو كتاب فقه اليهود، ويتكون من مجموعة من التعاليم التي قررها أحبار اليهود شرحاً للتوراة واستنباطاً من أصولها، وقد يخالف بعض نصوص التوراة، وهو ينقسم إلى كتابين وهما: تلمود أورشليم، وتلمود بابل. فتلمود أورشليم هو ما شرحه حاخامات فلسطين، وتلمود بابل هو ما شرحه حاخامات بابل. انظر: الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة. شيبة الحمد ص ٢٣.

(٣) انظر نفس المصدر.

الآخرين وكراهية لمن عداهم، حتى أصبحوا أشبه بالمرض الخبيث في أي بلد نزلوا فيه أو تعاملوا مع أهله كما فعلوا في بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا مما أدى إلى طردهم وقتلهم والانتقام منهم، حتى قذفوا بهم إلى فلسطين، وهم في فلسطين المحتلة اليوم أشبه بالغدة السرطانية تفتك بالجسم الإسلامي منذ أن غرستها فيه بريطانيا سنة ١٩٤٨م بمقتضى وعد بلفور وزير الخارجية البريطاني آنذاك الذي أعطاهم إياه سنة ١٩١٧م وإلى أن يتم القضاء عليهم على أيدي المسلمين لتخليص العالم من أضرارهم وتطهيره من أرجاسهم، كما قال ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله: هذا يهودي ورائي تعال فاقتله فيقتله)[1].

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً. انظر مختصر مسلم للمنذري ح ٢ ص ٢٩٥ كتاب الفتن باب في قتال المسلمين اليهود. رقم الحديث ٢٠٢٥، ورواه البخاري عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ (تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم، ثم يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله) البخاري ح ٦ ص ٢٣٩ كتاب علامات النبوة.